القاهرة أثناء زيارته لها في شباط (فبراير) ١٩٧٢، وكنت يومها أعد رسالتي لدرجة الدكتوراه عن «شعر المقاومة في الأدب الفلسطيني الحديث»، أذن لي أن أنسخ ديوانيه عن صورتين لهما بالاوفست، كان يحتفظ بهما محمود درويش الذي كان يقيم في القاهرة يومئذ.

وتلقى راشداً، للمرة الأولى، فيدهشك بوداعته وألفته وبشاشته، وتحس أن ابتسامته الصعبة، تنزّ حزناً وديعاً يكاد يكون عضوياً فيه. وتتمعن في مجموعة صوره المنشورة في كتاب التأبين وفي كتاب (The world of Rashid Hussein)، وهي تمثله منذ صباه المبكر في مصمص حتى فترة متأخرة من حياته في اميركا، فكأنك تلقاه المرة الأولى، لا تزيد عن ذلك سوى انك ترى هذا الحزن في سحنته يكبر وتنضج ملامحه، بنضج صاحبه على الأيام. ويطالعك راشد بقامته الفارعة، وضخامته المتناسقة في شيء من التوحش، فتحس في قسمات وجهه الأسمر بحثاً مشغوفاً عن المجهول، كأن فيه نهماً إلى الحياة يطلب الإشباع، وعطشاً يطلب الارتواء... وصاحبه لا يجد ما يشبع نهمه إلى الحياة، ولا ما يروي عطشه اليها، إيحاء بالقدرة على تقبله المزيد والرغبة في الحاجة اليه... كأنك ترى إلى شجرة برية غضة، أو غابة بكر تشعر من خلالها بقوة النماء والخصوبة والوعد بتوفير القابلية اليهما دائماً. وأمام إحساسه الفطري بهذا النهم وبتلك الرغبة، فقد نما شعوره بالحزن في دمه، وغذّي به مخ عظامه. يقول صديقه يوسف حمدان، وكان قد لقيه أول مرة في يافا سنة ١٩٦٣: «انطباعي الأول عنه: يا له من رجل حزين! انه يشبه رجلاً كان يبكي»[٤٩]. لقد قام في نفسه الاحساس بأن حياته كلها لن تشبع نهمه إلى الحياة ولن تروي عطشه اليها، ولذلك فإن حياته ستكون في نظره قصيرة ولن تطول. تقول زوجه (ANN)، «كان راشد دائماً يعتقد انه سيموت شاباً. وفي الحقيقة لم يكن يعتقد أنه سيبلغ الثلاثين. ومات في الأربعين دون سبب»[٥٠]. إحساس غريزي غذته ظروفه كلها، فتضخم في نفسه، وفاض على ملامحه ليقرأه عليها أصدقاؤه ومعارفه. يقول لسائله يوماً «أنا رجل حزين، ولكني لست جنائزياً. ومن يستطيع تمييز تخوم الحزن من الغضب لدى الفلسطيني؟»[٥١] وهل أقسى من الظلم الاجتماعي، وأكثر مرارة من العسف السياسي اللذين لحقا بأهل فلسطين؟! ان مأساة الفلسطينيين بما رافقها من اغتصاب وطنهم ومن ذل الغربة والإحساس بظلم العالم لهم، وما ترتب على ذلك كله من فقر وحرمان قد خمر هذه الأحزان في نفس الفلسطيني دون أن يفقد الأمل والتفاؤل التاريخي بعدالة القضية. أهو الحزن الفلسطيني إذن؟ لقد ظل هذا الحزن حزناً باسلاً شجاعاً تمازجه عروق الغضب والتمرد وعدم الرضا، عن الأشياء. ولكن راشداً، في منفاه الاميركي الذي اختاره لنفسه، حيث اصطلحت عليه التعاسة والهموم، ظل يحس انه «يشبه شجرة اجتثت من تربتها الطبيعية، وانها تتنفس هواء غريباً، وتسقى ماء نجساً»، وبهذا عرف الخطأ الذي ارتكبه بترك الوطن. وربما فهم لأول مرة خلال هذه الفترة انه عندما غادر فلسطين لم يستطع ان يأخذ جذوره معه، كما لم يستطع أن ينمي جذوراً جديدة في أي مكان»[٥٢]. وهل أكثر من هذا الشعور بالإذلال والمهانة؟ ومن هنا كان كل معارفه يرون في صوته نبرة الأسى، وفيه نموذج الرجل الذي يحس بالانكسار. ففي نيويورك يراه فوزي